

## يومية تولستوي

\*\*\*

منذ أشهر اصدر تشيرتكوف أحد اصدقاء الفيلسوف الروسي تولستوي كتاباً دعاه «يومية تولستوي» وهو مجموعة ما كان يسطره ذلك الكاتب العظيم لنفسه يوماً فيوماً في مفكرته غير قاصد ان يطلع أحداً على ما فيها . فلما احترمه المتون رأى تشيرتكوف أن يطبع هذه المفكرة وينشر مكنوناتها لتلا يحرم الجمهور ما فيها من الفوائد والعبر والافكار السامية

وهذه اليومية - اذا نظرنا اليها نظرة اجمالية - كتاب حكمة عميق ثمرة . ففي كل نص منها تقريباً أثر بحث شديد دقيق عن أسس الافكار والحقائق . هي صفحات كتبها الحكيم المتبجح لنفسه لا للقارىء . دون ان يهتم بعلمها الخارجية ، او بتشذيبها ، او بتطبيق متناقضاتها . هي معادلات حرة جرت بين الكاتب ونفسه في مواضيع شتى اهمها - الله ، ومعنى الحياة ، وشؤونها السامية ، والموت ، وزلات البشر ، وتغائصهم . وهذه الاخيرة كان تولستوي يراها في نفسه بجلاء ، مؤلم ولسنا مبالغين اذا قلنا عن هذه اليومية انها نبذة من تاريخ نفس نادرة العظمة والجمال

قد حفظ لنا تاريخ آداب البشر كتب «اعتراف» يباح فيها مؤلفوها

بأسرار حياتهم ومكنونات قلوبهم . وهي كثيرة ، واهمها اعتراف اوغستينوس  
 وبشينو ، وتشيليبي ، ولامارتين ، وجان جاك روسو . ولكن يومية  
 تولستوي ليست لتحسب من هذا القبيل ، ففي تلك آداب منمنة يكتبها  
 صاحبها ، وينظر من طرف خفي الى قراء الحاضر والمستقبل لينال استحبابهم ،  
 وفي هذه تصريحات نفس تناحي نفسها غير مبالية باحد .

وها نحن موردون امثلة منها للقراء -

في ٧ من تشرين الاول سنة ١٨٩٥ كتب تولستوي في يوميته ما يأتي -  
 « طالما رغبت العذاب واشتيت الاضطهاد . ذلك يعني اني كنت كسولاً  
 ولم اشأ ان اعمل شيئاً ، بل كنت اريد ان يشتغل سواي عني ، فينالني من  
 جراء ذلك عذاب ، فأصبر . »

وورد في مكان آخر ما يأتي -

فكرت مراراً في أمر الله وحقيقة الحياة ، فخيّل لي اني شككت في هذا  
 وذلك وصدقت براهيني . ولكنني منذ أمد قصير خطر لي أن الجأ الى الايمان  
 بالله وبخلود النفس ، شعرت لدهشتي بيقين ثابت هادي ، لم اشعر به قبلاً .  
 اما شكوكي وبراهيني السابقة فلم نكتفِ بأن تضعف وتأخذ في التلاشي  
 بل انقلبت الى مواعيد كدمات تدعم ايماني . »

وجاء في ٢٦ من كانون الثاني للسنة نفسها ما يأتي -

« اضطلجت لانام فلم ينطبق لي جفن . وتمثل لي جلياً نوع من ادراك  
 الحياة هو هذا - لو فرضنا اننا كلنا مسافرون في طريق واحدة ، وامامنا

محطة واحدة علينا ان نمر بها اجمعين في حالات متساوية ، أفلا يجد بنا  
 اذن ان نجتازها نشيطين ، فرحين ، متففين ، متساندين ، جادين ، غير مستائين  
 من ان يذهب الغير قبلنا أو نحن قبله الى حيث كلنا صائرون لا محالة ؟  
 وما يجد بالذكر تصريحات كتبها تولستوي في يوميته وهو لم يزل  
 في صباه . ففيها تكشف صفحات مطوية من حياة هذا الحكيم ، ويبان  
 للقارى . بعض ما كان هذا الحكيم يراه في نفسه من العيوب فيتوق الى  
 اصلاحها .

عن هذا القبيل ما جاء في يوميته بتاريخ الله من تموز سنة ١٨٥٠ . وهو  
 شرح حبه لفتاة أولع بها في مدينة كازان -

« ان الحب والدين لمظهران من مظاهر الشعور انساني النقي . لست  
 ادري ما يدعو الناس حباً . فاذا كان الحب ما فرأت عنه وسمعت ، فانا لم  
 اذقه قط . رأيت زينايدا سابقاً عندما كانت طالبة علم في مدرسة عالية ،  
 فأعجبتني ، ولكن معرفتي بها كانت قليلة . مكثت في مدينة كازان اسبوعاً ،  
 ولو سلت لم مكثت فيها كل هذه المدة ، وماذا لذي لي هنالك ، ولم كنت  
 سعيداً ؟ لما قلت جواباً على ذلك - اني فعلت ما فعلت لاني احببت ، فاني  
 لم اكن اعرف معنى الحب . ويلوح لي ان جبلي ذلك الامر هو اهم خصلة  
 في الحب ، بل هو كل ما تتألف منه محاسن الحب . وما أطف ما شعرت  
 به في ذلك الزمان . لم اكن اشعر بانثال هذه الشهوات الطفيفة التي تشوه  
 ملذات الحياة أجمع . ما قلت لها كلمة عن حبي ، ولكنني موثق انها تعرف

شعوري نحوها . واذا كانت تحبني ، فلأنها فهمتني . ألا ان فرعات النفس كلها تقيه سامية في بدنها ، ولكن الحوادث الواقعية تشوه طهارتها ومجاسمتها .  
ومنه ما ذكر بتاريخ ١٦ حزيران سنة ١٨٤٢ وهو -

« لقد بدأت بالعودة على القاعدة الاولى التي سنتها لنفسي ، وها الان اسن لنفسي قاعدة أخرى وهي - انظر الى محضر النساء ، نظرك الى سيئة لا يد منها من سيئات الحياة الاجتماعية ، وابتمد عنه ما استطعت . ألا ، ليتد شعري ، عن تأخذ محبة اللذات ، والتنعيم ، والسذاقة في كل أمر ؟ أليس عن النساء ؟ وعلى من الذنب في قتلانا عواطف سامية غريزية كالشجاعة والثبات والرصانة والانصاف وسواها ؟ أليس على النساء . النساء اسرع اكتساباً من الرجال ، ولذا كن في عصر الفضيلة خيراً من الرجال . اما في هذا العصر الفاسد - عصر الميوب والمخلاعة فهن اسوأ منهم . »

وفي سنة ١٨٥١ كان تولستوي يعالج كتابة رواية فشق عليه العمل ورأى من نفسه عجزاً فكتب في يوميه -  
« لم اصنع شيئاً . ترى أنا ذو موهبة كالكتبة العصريين ؟ لست على شيء ، من ذلك . . . »

هذا قليل من كثير نكتفي به لضيق الصفحة رغم حب الاستزادة . والفرق بين مؤلفات تولستوي ويوميه ان في تلك انشاءً جميلاً وفناً ، وفي هذه اقرارات ليست على شيء ، من الفن . تلك كتبها للناس وهذه كتبها لنفسه . وبالاختصار هذه اليومية هي نتيجة عمل افكار وشواجر وضهير